المستوى الصوتي
في قراءات سورة " عبس" المباركة
مقاربة دلالية على ضوء النبر و التنغيم

د. محمد جعفر

كلية الآداب /جامعة القادسية

تمد القراءات القرآنية الدرس اللغوي بمادة تزخر بالمباحث التي تستأهل الوصف و الدراسة و التحليل ، و لا سيما البحث اللهجي و البحث الصوتي [1] ؛ ذلك بأنَّ القراءات القرآنية تصدر – في معظمها – عن خصائص او ظواهر ذات صلات لهجية و معطيات صوتية تؤدي إلى تغيير و اختلاف في الأوجه التي تقرأ بها آي التنزيل العزيز .

و تهيئ القراءات القرآنية فرصة أكيدة و مناسبة لمعرفة الخصائص اللغوية للهجات العربية و اختلافاتها و الظواهر الصوتية المرتبطة بها ، و تكون مناسبة تطبيقية رائدة لمعرفة القوانين أو الاتجاهات الصوتية التي تطرد في الاستعمال اللغوي للعربية و لهجاتها و اختبارها من خلال اعتماد القراءة .

تتعامل هذه الدراسة التطبيقية مع القراءات القرآنية على أساس من أنَّها لا يمكن أن تنفصل أو تبتعد – في اغلب وجوهها – عن حدود ما يفهمه القارئ من النص القرآني ، فيقرأ من دون أن يغادر هذا الفهم و تأتي القراءة متساوقة مع هذا الفهم و الأفق الدلالي . و من ثم فالقراءات هذه محاولة أو طريق إلى التفسير الذي حظي به النص القرآني ؛ مما يجعل الدراسة التي تكون مادتها التطبيقية القراءات لا تستغني عن المعالجة و التحليل على هدي من ذلك و لو بحدود الممكن المتاح .

ما لا استطيع أن أحيد عنه أنَّ القارئ (المفسر) يفسر من حيث يقرأ ، بمعنى أنَّه يجعل القراءة ممرا للقول الدلالي ؛ لذا ينبغي السعي في هذه الدراسة – و في أيَّة دراسة للقراءات – إلى إيجاد العلاقة بين القراءة ذات الصلة بالظواهر الصوتية و المعنى مستعينا على ذلك بالمعطيات السياقية التي تشترك في إنتاج المعنى و إنتاج القراءة على حد سواء ؛ فإنَّ المكونات السياقية هي التي تهيئ للقارئ التنوع في وجوه القراءة في غير واحد من المواضع . و جريا على هذه الطريق فإنَّني أحاول الاتجاه بالتفسير الصوتي لهذه القراءات الى ما يضعه غير بعيد من البحث الدلالي ؛ فوجدت تبعا لذلك أنَّ هذا يتوافر عند بحث جذور العلاقة بين الظواهر الصوتية التركيبي و إسهامات النبر و التنغيم الدلالية ؛ فكانت هذه الدراسة في هذه العلاقة .

أمَّا التطبيقات الصوتية التي وقعت عليها هذه الدراسة فهي قراءات سورة عبس المباركة ؛ لما لهذه القراءات من ارتباطات واضحة و قوية بالأبعاد الدلالية السياقية التي تتكلم عليها هذه السورة المباركة ، و جاءت طريق هذه الارتباطات متجسدة بالنبر و التنغيم ؛ ذلك بأنَّهما يصوران جانبا متميزا من علاقة الصوت بالمعنى ، إذ تتولى الوحدة الصوتية المنبورة او التي وقع عليها التنغيم أداء وظيفة دلالية بنسبة ما فضلا عن وظيفتها كوحدة صوتية مشتركة

في تكوين معنى الوحدة الدلالية .

النبر و التنغيم

النبر :

ما يمكن قوله تعريفا بالنبر (STRESS) أنَّه وضوح [١] سمعي يصيب مقطعا من مقاطع الكلمة ، و ينتج هذا الوضوح عن ضغط المتكلم على هذا المقطع دون غيره [١] من مقاطع الكلمة . و لا يقتصر إنتاج النبر على ما تقوم به أعضاء المخرج الصوتي الذي يتحقق منه نطق المقطع المنبور ، بل يشترك فيه الجهاز النطقي كله ؛ ففي صاحب النبر ((نشاط جميع أعضاء النطق في وقت واحد ، فعند النطق بمنطق منبور نلحظ أنَّ جميع أعضاء النطق تنشط غاية النشاط فيترتب على ذلك أن يصبح الصوت عاليا واضحا في السمع)) [١] .

أمَّا عن تفسير حدوث النبر في سياق الكلام فيمكن إرجاعه إلى أسباب بيئية [١] مرة ، و أسباب نفسية [١] ذات أبعاد دلالية تتصل بسياق الحال مرة أخرى ؛ ذلك بأنَّ ما يطرأ على الطبيعة الكلامية من عدول سياقي فإنَّه أكثر الأمور ارتباطا بهذا السياق الذي يحوي العملية اللغوية كلها . و من ثم فالنبر عنصر من عناصر التركيب اللغوي يؤدي وظيفة لا يحسن تجاهلها في دراسة اللغة .

التنغيم :

يُعرف بالتنغيم (INTONATION) على أنَّه ((ارتفاع الصوت و انخفاضه أثناء الكلام)) [١] اعتمادا على ذبذبة الوترين الصوتيين ؛ مما يؤدي إلى ما يشبه (التلوين الموسيقي) [١] في الكلام . و يقال في التنغيم أنَّه ((تغييرات تنتاب صوت المتكلم من صعود إلى هبوط ، و من هبوط إلى صعود ؛ لبيان مشاعر الفرح و الغضب ، و النفي و الاثبات و التهكم و الاستهزاء و الاستغراب)) [١] .

و يتجه التنغيم في اتجاهين : اتجاه تصعد فيه النغمة من أسفل إلى أعلى المقطع المنبور ، و يُسمى بالتنغيم الصاعد . و اتجاه تنخفض فيه النغمة من أعلى إلى أسفل المقطع المنبور ، و يُسمى تنغيما هابطا [١] .

يظهر من هذا ارتباط التنغيم بالنبر ، فلا إمكان لتوقع احد سماع التنغيم عند انتهاء الجمل ما لم يكن هنالك نبر للمقطع الصوتي الأخير قد أحدثه المتكلم [١] و استقر في نسيج السياق الصوتي الذي تشكله هذه الجملة ، أو تشكل به تمام المعنى .

النبر و التنغيم في العربية :

من الظواهر الصوتية المشتركة بين اللغات ظاهرتا النبر و التنغيم ؛ فلا تخلو لغة ـ أيَّة لغة ـ من وجودهما بشكل أو بآخر ، إلا إنَّ اللغات البشرية تتفاوت و تختلف في استعمالهما ، و في أثرهما في السياق اللغوي و التوصيل الدلالي . فاللغات تنقسم بحسب ذلك على لغات تستعمل النبر و التنغيم استعمالا تمييزيا ، و لغات لا تستعملهما استعمال المميز الدلالي ؛ فالأولى لغات نبرية و الأخرى لغات غير نبرية . و يعرف الفرق بين اللغات النبرية و اللغات غير النبرية من ثبات النبر عند مكان معين في غير النبرية و عدم ثباته في اللغات النبرية ، أي أنَّه حر في هذه اللغات . أمَّا التنغيم فإنَّه يكون تمييزيا من دون فضل للغة على أخرى [١] إلا في التوسع في استعماله و أثره في

المعنى .

و قد تناول الدارسون النبر و التنغيم في اللغة العربية ، فكانوا بين من تناول الظاهرتين تناولا ايجابيا فقال بتوافرهما في العربية مع القول أنَّ النبر فيها نبر غير تمييزي [1] . و منهم من تناولها تناولا سلبيا فانتهى إلى خلو العربية منهما [1] ؛ مما جعل الباحثين يتبارون و يجتهدون في معرض الرد و اثبات النبر و التنغيم للعربية [1] .

و ما يجب أن نلحظه في هذا السياق أنَّ هذه الآراء كلها كانت محض تنظيرات لا تمتلك رسمية الاطراد و حجية الدليل ، و لاسيما آراء الرد على الجانب السلبي ، فظلت تعاني من حاجتها إلى الدرس الصوتي التطبيقي ذي الأسس و النتائج الموضوعية . فإنَّ المسألة لا تنتهي عند الدفاع عن توافر النبر و وجوده في الاستعمال اللغوي العربي و إنَّما تكون أكثر أهمية في قضية تقسيم اللغات على لغات نبرية و لغات غير نبرية ، و عد اللغة العربية في صف القسم الثاني (اللغات غير النبرية) ؛ فهذا يجعل الظاهرة اللغوية تعيش حالة الوجود و لكنَّها لا تمارس الكينونة الكاملة و الأثر الايجابي في استعمال اللغة و دراستها . و مما سيتضح خلال هذه الدراسة التطبيقية أنَّ النبر لم يلازم موضعا بعينه في السياقات المختلفة ؛ مما ينبئ أنَّه نبر تمييزي دلالي فارق بين المعاني ، و كذا يكون حال التنغيم .

وظيفة النبر و التنغيم :

لعل من المفيد و المناسب أيضا القول في هذا المكان أنَّ النبر و التنغيم عدول صوتي سياقي يعترض الطبيعة الكلامية تبعا لمقتضى الحال و متطلبات التوصيل و المعنى الدلالي ؛ فإنَّ هذا القول ينبغي أن يكون هو الفهم أو التعريف الدقيق الذي يتناسب مع هدف الدراسة من جهة و حقيقة النبر و التنغيم من جهة ثانية ، فضلا عن أنَّ له أثرا في مقاربة ما للنبر و التنغيم من وظيفة و تخطرها ؛ فهو يضع البحث بإزاء تلكم الوظيفة ، و هي - من دون أدنى شك - وظيفة دلالية تسبقها وظيفة أخرى . نتكلم عليها الآن :

١ـ الوظيفة الصوتية : يبدو أنَّ الوقوف على الوظيفة الصوتية التي يؤديها النبر بنوعيه التوتري و العالي [1] ليس سهلا ؛ ذلك بأنَّ ما يمكن عدَّه وظيفة للنبر هو في الوقت نفسه سبب في حدوثه .

للنبر وظيفة صوتية عامة تتمثل بأثره في سرعة الأداء الكلامي ؛ فقد استقر في الدراسات اللهجية الصوتية أنَّ اللهجات و البيئات اللغوية التي تميل إلى السرعة في أداء الكلام تتوسل بالنبر من أجل بلوغ هذه السرعة [1] . و لا يخفى هنا التدافع بين كون سرعة الأداء سببا و وظيفة للنبر في آن .

أمَّا التنغيم فإنَّ وظيفته الصوتية تتجسد في ما له من سمة صوتية موسيقية [1] تشبه الترجيع اللحني ؛ فمن المعلوم أنَّ التنغيم يقوم على التنويعات الموسيقية في نسق الكلام . و لا يبعد هنا الأثر الموسيقي الجمالي لهذه التنويعات ، مما يملك على السامع أسباب التواصل و الارتياح .

٢ـ الوظيفة الدلالية : يمثل الدور الدلالي الذي يقوم به النبر و التنغيم الوظيفة الرئيسة له ، و تتصل هذه الوظيفة بسياق الحال ،و تتحدد وفاقا لاختيار المقطع المنبور او نوع التنغيم ؛ فإنَّ هذا الاختيار محكوم بالأغراض الدلالية التي يبغي المتكلم توصيلها و إبلاغها السامع .

و ينبغي في سياق الكلام على هذه الوظيفة التعامل مع النبر و التنغيم على أساس من عدِّهما وحدة صوتية من

وحدات السياق اللغوي الدلالي [١] جيء بها بسبب من السياق الاجتماعي . و لتوضيح هذه المسألة الدلالية نسوق المثال التراثي الآتي . يقول ابن جني : ((و قد حذفت الصفة و دلت الحال عليها و ذلك في ما حكاه صاحب الكتاب من قولهم : سير عليه ليل ، و هم يريدون : ليل طويل . و كأنَّ هذا إنَّما حُذفت فيه الصفة لما دل من الحال على موضعها . و ذلك أنَّك تحس في كلام القائل لذلك من التطويح و التطريح و التفخيم و التعظيم ما يقوم مقام قوله : طويل أو نحو ذلك . و أنت تحس هذا من نفسك إذا تأملته ، و ذلك أن تكون في مدح إنسان و الثناء عليه فتقول : كان و الله رجلا فتزيد في قوة اللفظ بـ (الله) هذه الكلمة ، و تتمكن من تمطيط اللام و إطالة الصوت بها و عليها ، أي رجلا فاضلا أو كريما أو نحو ذلك)) [١] . فما التطويح و التطريح و التفخيم و التعظيم ... و تمطيط اللام و إطالة الصوت بها و عليها إلا ادراك متميز لظاهرتي النبر و التنغيم [١] في الكلام ، و استثمارهما في التوصيل الدلالي ؛ فقد حلا محل الوحدة الدلالية المحذوفة و صارا المعوض الدلالي السياقي عن هذا الحذف .

و قد يستعمل التنغيم استعمال الوحدة الدلالية المتحكمة دلاليا بمعنى الجملة ؛ فإنَّ الوحدات الدلالية المتساوقة في هذه الجملة او تلك قد لا تقطع بتحديد المعنى المراد . و من ذلك قوله تعالى على لسان يعقوب (عليه السلام) : ((قال اللهُ على ما نقول وكيل)) [١] ، فثمَّة طريقتان للدلالة على أنَّ الفاعل (القائل) ليس الله سبحانه بل يعقوب (عليه السلام) ، هما : أن ((يسكت على (قال) لأنَّ المعنى : قال يعقوب . غير أنَّ السكت يفصل بين القول و المقول . و ذا لا يجوز ، فالأولى أن يفرق بينهما بالصوت ، فيقصر بقوة النغمة اسم الله تعالى)) [١] ، فهو هنا يلجأ الى التنغيم فيسلطه على لفظ الجلالة فيمنع وقوعه فاعلا لفعل القول [١] ؛ فيظهر أثر التنغيم في توجيه عناصر التركيب بحسب مقتضيات المعنى الدلالي ، إذ اعتمد متحكما دلاليا مميزا في دفع اللبس عن هذا التركيب اللغوي الذي يحتمل موقفين في الدلالة ، فكان التنغيم الطريق المثلى في ذلك .و تختلط مع الوظيفة الدلالية وظيفة اخرى هي الوظيفة النفسية ، فلا يعدم في أحايين متعددة أن يصير النبر و التنغيم وعاءً او مكانا لتفريغ المشاعر و الأحاسيس ؛ ذلك بأنَّ الضغط على مقطع معين من مقاطع اللفظة قد يكون بسبب حالة نفسية مشوبة بالألم و الحزن ، و كذلك اطالة الصوت و تلوينه عند التنغيم فإنَّه لا ينفصل عن ميل الذات الى نشدان عوامل الترويح و تفريغ ما تختلج من هموم وآلام .

و مثال ذلك قوله تعالى على لسان زوج ابراهيم (عليهما السلام) عند البشرى بالغلام : ((فأقبلت امرأته في صَرَّة فصكَّت وجهها و قالت عجوز عقيم)) [١] فإذا ما استحضر السياق الاجتماعي بكامل عناصره و أجوائه ، و قرئ بنغمة هابطة فإنَّ (المسند النفسي) [١] سيتوزع بين الحذف و التنغيم ؛ إذ يدل حذف الضمير (أنا) العائد الى الذات على تحول هذه المرأة من الكينونة المتكاملة التي تعيش حالة الاعتزاز بالذات و تتذوقها الى حالة الوجود المدبر المسور بأسوار من الألم و التحسر ، فهي ((تشعر بأنَّها ما عادت امرأة (كاملة) فحذف ما يعود عليها رمزا لهذا النقصان و التقصير عن الولد)) [١] .

هذا من جهة الحذف أمَّا من جهة التنغيم الهابط فإنَّه يحكي حالة الشعور بمفارقة الكمال و الرجوع عنه ، او حالة (التدني) النفسي التي ترافق امرأة آيسة من الحمل و الانجاب ، على حين لا تحتاج مشاعر الأسف و الخجل ، فضلا عن الحزن و التحسر و الألم التي يصور تفاصيلها و أجواءها التنغيم النفسي ـ و صورها الحذف و غيره من عناصر السياق الدلالي من قبل ـ في هذا الأداء اللغوي المشحون الى عناء اثبات .

النبر و التنغيم في قراءات سورة (عبس) المباركة

الأول : قراءات سورة عبس المباركة ـ عرض و توثيق [١] :

١- قوله تعالى : ((عَبَسَ و تَوَلَّى)) ـ (الآية : ١) . قرئ عبَّسَ بتشديد الباء

٢- قوله تعالى : ((أنْ جَاءَهُ الأعْمَى)) ـ (الآية : ٢) . و القراءة فيه: أآن بهمزة بعدها مد ، و آأن بهمزتين بينهما ألف ، و أأن بهمزتين مقصورتين مفتوحتين .

٣- قوله تعالى : ((أو يَذَّكَّر فتنفعه الذكرى)) ـ (الآية : ٤) . قرئ: يذْكُر بسكون الذال و ضم الكاف .

٤- قوله تعالى : ((فأنت له تَصَدَّى)) ـ (الآية : ٦) . القراءة فيه : تَصَّدَّى بالادغام .

٥- قوله تعالى : ((فأنت عنهُ تَلَهَّى)) ـ (الآية : ١٠) . و قراءاته : عنهو تَلَهَّى بالاشباع ، و تَلْهَى بسكون اللام .

٦- قوله تعالى : ((أنَّا صببنا الماء صبًّا)) ـ (الآية : ٢٥) . و قرئ : أنى بفتح الهمزة ممالا .

٧- قوله تعالى : ((ترهقها قتَرَة)) ـ (الآية : ٤١) . و قرئ : قتْرَة باسكان التاء [١] .

الثاني : النبر و التنغيم من خلال الظواهر الصوتية :

ربما كان الكلام على الوظيفة الدلالية لظاهرتي النبر و التنغيم كافيا كتوطئة للدخول على القراءات القرآنية لمعرفة ما إذا كان لهما حضور فيها ، و لاسيما أنَّ دراسة النبر و التنغيم قد تكون فالحة و منتجة إذا ما قصدت سمة صوتية فردية او مستوى لغويا لهجيا .

و لكن سيكون تلمس هاتين الظاهرتين الصوتيتين التركيبيتين او فوق التركيبيتين [١] و تتبعهما في القراءات و قد حذَّر الدارسون من صعوبة البحث التطبيقي عندما يتجه الى الدراسة في النبر و التنغيم [١] ؟ و لا ندري كيف يكون البحث فيهما إذا لم يكن بحثا تطبيقيا تحليليا وصفيا يتوخى الآثار الدلالية لهما في توصيل المعنى ؟!

إنَّ توجيه القراءات القرآنية توجيها صوتيا من خلال الرجوع الى مظاهر النبر و التنغيم قد يكون ممكنا عندما يحاول هذا الدرس أن يصدر عن أنَّ الظواهر الصوتية التركيبية المعروفة من مماثلة و امالة و تشديد و تخفيف ... أنَّما تصدر عن ظاهرة صوتية فوق تركيبية دلالية هي النبر . إذن يسهل البحث في هذا الاتجاه عندما تبحث أصول هذه الظواهر في ظاهرة كبرى و ارجاعها اليها .

و تعين القراءات القرآنية على تحديد النبر و الوقوف على موضعه في العربية [١] ، ذلك بأنَّها تمثل طبيعة او خصيصة نطقية فردية او لهجية . أمَّا الظواهر الصوتية التي تنبئ بالنبر و التنغيم فهي :

١- التشديد و الادغام :

يستعمل التشديد للدلالة على المبالغة و القوة و توكيد الكلام . و يظهر في قراءة ((عَبَّسَ)) بالتشديد . و

نستعين بالتحليل المقطعي لمعرفة أثر النبر في التشديد .

فإنّ (عَبَسَ) يتألف من :

مقطع قصير مفتوح + مقطع قصير مفتوح + مقطع قصير مفتوح

أي أنَّه يتألف من ثلاثة مقاطع مفتوحة ، و يبدو أنَّ القارئ أراد معنى التفخيم و التكثير في هذا الحدث فنبر على المقطع الأول [١] مما جعل الانتقال الى مقطع قصير مفتوح صعبا ، بمعنى أنَّ النبر قد جلب التشديد ، و من ثم يكون هو الذي جلب دلالة المبالغة التي تدل عليها هذه القراءة [١] في هذا السياق . و لاسيما أنَّ القارئ قد تمثَّل السياق الاجتماعي للحدث اللغوي فظنَّ أنَّ دلالة التكثير و المبالغة في الفعل (عَبَسَ) هي التي يقصدها الخطاب القرآني .

و السياق اللفظي يوجد فيه ما ينبئ بمعنى المبالغة في هذا الحدث ؛ ذلك بأنَّ العتب على هذا الحدث قد جاء ليشغل آيتين في هذه السورة المباركة هما قوله تعالى : ((و ما يُدريك لعلَّه يزَّكَّى ٠ او يذَّكَّر فتنفعه الذكرى)) [١] ، فقد استبدل الخطاب القرآني الدلالة على العتب و من ثم الدلالة على التكثير في الدال (عَبَسَ) من طريق السياق بالدلالة اللفظية (تشديد عَبَسَ) ، فلم ينص على ذلك بالتشديد و إنَّما دل عليه بسياق النص كله .

و قد تكون هذه القراءة مستندة على أصول لهجية تميل الى استبدال المقاطع المفتوحة المتوالية و تحويلها و كراهة تواليها ، فتتحول الى ما يمنع هذا التوالي . فالتشكيل الصوتي لـ ((عَبَّسَ)) :

مقطع طويل مغلق + مقطع قصير مفتوح + مقطع قصير مفتوح

و هذه الخصيصة اللهجية التي تنماز بها لهجة تميم تتوسل بالنبر وصولا الى التخلص من توالي المقاطع المفتوحة [١] . أمَّا الادغام فهو ضرب من التأثير الذي يحدث بين الاصوات المتجاورة فيصل الى حد التماثل التام بين الوحدات الصوتية . و هو من الظواهر الصوتية الواسعة ، و منه القراءة : ((تّصَّدَّى)) . الأصل في هذا الفعل (تتصدى) إلا أنَّ الصاد ـ و هي من الأصوات المهموسة المفخمة ـ قد أثرت في التاء التي هي من الأصوات المهموسة المرققة فانقلبت صادا . أي أنَّه قد حصل تأثير مدبر فأثر الصوت الأقوى في الصوت الأضعف .و يبدو أنَّ السبب في قراءة الادغام هو الميل الى جهر التاء المهموسة ، و ربما كان هذا الميل مرافقا للنبر على المقطع الأول او ناتجا عنه ، و قد يكون هذا المقطع قد وقع عليه النبر لغرض الالمام بالدلالة على التوكيد بنسبة ما .

٢ـ الهمز و المد :

العلاقة بين الهمز و المد علاقة واضحة ، فهما من الناحية النطقية متماثلان ، إذ يشكل كل منهما احتباسا صوتيا يتبعه انفجار [١] .

و يقول الدكتور عبد الصبور شاهين : ((إنَّ تتبع العلاقة اللغوية بين مفهوم الهمز و النبر يوقفنا على موضع النبر في نطق العرب الفصحاء ... فإنَّ ملاحظتنا على النبر و علاقته بالهمز يبدو ذات أهمية بالغة ، حتى لنوشك ابتداءً أن نقرر هنا أنَّ النبر كان يدور مع الهمزة في الكلمات المهموزة)) [١] . و تزداد العلاقة بين النبر و الهمز وضوحا في (النبر الحنجري) ، و هو ((التوتر أو الاحتباس المفاجئ الذي يسبق في حالات معينة إصدار حركة واقعة في أول الكلمة)) [١] .

و يُستنتج من مفهوم النبر الحنجري أنَّ الوظيفة الصوتية للنبر تتوحد مع الموقع الذي يتم فيه إنتاجه في الجهاز النطقي و هو (الحنجرة) ، و هذا النبر همزة ليس غير ، و هي همزة وظيفة [١] و ليست همزة تمثل جزءا من بنية الكلمة .

و يمثل الهمز في التراث اللهجي العربي خصيصة لهجية فارقة بين تميم و الحجاز ، إذ يتوسط الحجازيون بين عدم تحقيقه و نطقه بين بين ، على حين يحققه بنو تميم [١] .

أمَّا المد ، فهو تطويل الصوائت و مدها مدا اعتياديا او عارضا لسبب تركيبي [١] معين . و ما يعنينا منه في هذه الدراسة علاقته بالهمز او علاقته بتحقيق الهمزة على وجه الدقة ؛ فإنَّ أصوات المد إذا جاورت الهمزة ازدادت طولا و امتدادا [١] .

و اختلف الدرس الصوتي في تعليل اجتماع المد مع الهمز ؛ فأنقسم علماء التجويد بين من جعل المد لبيان الهمزة ، ذلك بأنَّها تبدو خافية ، و من جعله محافظة على صوت المد نفسه لخفائه [١] ايضا . على يعلل الدرس الصوتي الحديث الظاهرة ـ على قلة عنايته بها ـ بأن جمع العلتين معا . يقول الدكتور ابراهيم أنيس : ((أمَّا السر في هذه الاطالة فهو ـ كما يبدو لي ـ الحرص على صوت اللين و طوله ، لئلا يتأثر بمجاورة الهمزة ... فاطالة صوت اللين مع الهمزة يعطي المتكلم فرصة ليتمكن من الاستعداد للنطق بالهمزة)) [١] . و من الباحثين من قصر كلام الدكتور أنيس على علة المحافظة على صوت اللين فقط [١] . و يتضح أنَّه يضم الى هذه العلة المفهومة من قوله (الحرص على صوت اللين) علة المحافظة على على الهمزة المفهومة من قوله (اطالة صوت اللين مع الهمزة يعطي المتكلم فرصة ليتمكن من الاستعداد للنطق بالهمزة) .

و نجد بين قراءات سورة (عبس) المباركة قراءة قد تحل هذا المشكل و تدفع بالخلاف بعيدا ، و هي قراءة : ((آأن جاءه)) . فإنَّ الهمزة الأولى في هذه القراءة للاستفهام [١] الانكاري [١] ، او للتعجب .

أمَّا المد الذي جاء به القارئ بعد الهمزة ربما يكون لغرض الاستعداد للتصويت بالهمزة الثانية . فلمَّا كان صوت المد غير موجود أصلا ، و إنَّما أتى به القارئ فذلك لا يدعو للقول أنَّ المد جاء لغرض المحافظة على صوت المد نفسه ، و لم يبق في هذا السياق الا غرض المحافظة على الهمزة .

و التوجيه الصوتي المتقدم لاجتماع المد و الهمزة يدعو ايضا الى البحث عن تعليل ثان لهذا الهمز ، و قد نجده ها هنا في الفرق بين دلالة الهمزتين في سياق هذا الكلام . بمعنى أنَّ المد جاء لغرض الفرق بين معنى الاستفهام و معنى التعجب اللذين يقبلهما السياق ؛ فجاء المد لترجيح أحدهما على الآخر ، او للاشارة الى تضمنهما معا في الهمزة الأولى ، أي أنَّ المد لقد تحمل او أدى دور التنغيم [١] الفارق الذي يدل دلالة مؤكدة على الانكار و التعجب في هذا السياق .

و ما يمكن الانتهاء اليه من هذه المقاربات الصوتية الدلالية التي تتكلم على اجتماع المد و الهمزة أنَّه ما من شك في أن تجتمع في المد الوظيفة الصوتية للنبر و التنغيم و الوظيفة الدلالية . و يتعزز هذا التفسير بقراءة : ((آأن)) ؛ فلم يأت فيها المد قبل الهمز حتى يقال أنَّه جاء لغرض المحافظة عليها ، و إنَّما جاء بعدها ليمثل تنغيما صاعدا قبل انتهاء الجملة ليتولى الدلالة على التعجب و الانكار من المكان الذي تأتي منه الدلالة على الاستفهام [١] نفسه ؛ ليتضح أن ليس الاستفهام الحقيقي هو المراد .

٣- الحذف و التخفيف :

يحدث الحذف و التخفيف في الصوامت و الصوائت التي تكون في بنية الكلمة . و تميل اللهجات العربية الى تخفيف ما كان مثقلا [١] عموما . و من ذلك قراءة : ((تَلْهَى)) باسكان اللام .

و يبدو أنَّ هذه القراءة قد نتجت عن انتقال موضع النبر ؛ فإنَّ ((تَلَهَى)) ينبر على مقطعها الثاني . و تشكيلها

المقطعي :

مقطع قصير مفتوح + مقطع طويل مغلق + مقطع طويل مفتوح

و عندما ينتقل النبر الى المقطع الأول يكون الاحتياج الى غلق المقطع فيحدث حذف المتماثل الأول (الهاء الساكنة) مع المقطع الثاني ، و ينتقل التسكين الى المقطع الأول ليتحول من حالة الفتح الى حالة الاغلاق . و هذا ما يوضحه التشكيل المقطعي لقراءة التخفيف ((تَلْهَى)) :

مقطع طويل مغلق + مقطع طويل مفتوح

و لا يخفى في هذه القراءة الاجتزاء الذي أصاب البنية الصرفية ، فتحولت من بنية ذات ثلاثة مقاطع الى بنية تتألف من مقطعين . و تغيرت دلالة الفعل بانتقال موضع النبر ؛ فصار يدل على قلة الانشغال ، و ذلك ما يتناسب مع البنية المجتزأة .

و بمثل هذا التفسير توجه قراءة : ((يَذْكر)) بالتخفيف ؛ فإنَّ انتقال النبر من المقطع الثاني الى المقطع الأول صاحبه اغلاق المقطع المنبور فينتج التخفيف و الاجتزاء . و المقارنة المقطعية بين (يَذَّكَّر) و (يَذْكر) توضح ذلك ، إذ إنَّ (يَذَّكَّر) تتألف مقطعيا من :

مقطع طويل مغلق + مقطع طويل مغلق + مقطع قصير مفتوح + مقطع قصير مفتوح

على حين يتألف ((يَذْكر)) من :

مقطع طويل مغلق + مقطع قصير مفتوح + مقطع قصير مفتوح

و ترتبط قراءة التخفيف بالسياق ؛ فكأنَّ القارئ أراد الوقوف على معنى القلة في التذكر و النفع ، هذا المعنى الذي فهمه من قوله تعالى : ((لعلَّه)) ؛ فاجتزأ البنية الصرفية و كان لزاما عليه أن يذهب بالتضعيف ، لأنَّه لا يتناسب مع التقليل و الاحتمال الذي فهمه و قرأ في هذا الموضع على ضوء منه .

و من التخفيف الذي نتكلم عليه ايضا قراءة : ((قتْرَة)) باسكان عين الكلمة . و هذه القراءة تستند على خصيصة لهجية تنماز بها قبيلة تميم [١] من بين القبائل العربية ، و لبيان تلك الخصيصة الصوتية يقول أحد الباحثين : ((من الواضح أ نَّ اسكان عين الكلمة عند التميميين كان بسبب من أنَّهم ضغطوا على المقطع الأول في الكلمة ضغطا توتريا ، أي ضغط لا يسمح بخروج الهواء ، فلمَّا كانت الحركات تعتمد على الهواء ، سقطت ها هنا ؛ لأنَّ أعضاء النطق توترت فلم تسمح بخروج الهواء)) [١] .

إنَّ تسكين التاء في ((قتْرَة)) إذن ناتج عن النبر التوتري على المقطع الأول ، و كما مر في الكلام على العادة النطقية عند بني تميم . و لعل النبر على هذا المقطع كان لغرض تكثيف معنى التوكيد ، و لربما كان بسبب من الخوف و الرهبة التي يبعث عليها هذا المشهد الذي تتكلم عليه السورة في آيات [١] متلاحقة منها ؛ فقد تصاعدت حالة الخوف شيئا فشيئا الى أن طفحت عند آخر السورة المباركة فتسببت في النبر على هذا المقطع لاحتواء الخوف و الندم و الحسرة و التعبير عنها ؛ فيكون النبر ـ بعد هذا ـ مرتبطا بالحالة النفسية التي تثيرها السورة المباركة بجوها العام ، و هذا ليس ببعيد عن علاقة الأسباب النفسية في حدوث النبر ليكون مصداقا تطبيقيا لها .

٤ـ الاشباع :

الاشباع من الظواهر الصوتية الكمية الخاصة بالصوائت القصيرة ، و هو الزيادة في تمكين هذه الصوائت الى

الحد الذي تتحول معه الى صوائت طويلة ، فاشباع الفتحة ينتج عنه الألف ، و اشباع الضمة ينتج عنه الواو ، و اشباع الكسرة ينتج الياء [1] . و منه قراءة : ((عنهو تَلَهَّى)) باشباع الضمة في ((عنهو)) ، هذا الاشباع الذي حصل بسبب من النبر على الهاء لأجل اظهار القوة و التوكيد ، و لاسيما أنَّ السياق قد حوى ما يدل على التوكيد ، و ذلك قوله تعالى : ((تَلَهَّى)) فنقل القارئ التوكيد الى ((عنهو)) مضاعفة له

٥- الامالة :

و هي ((أن تنحو بالفتحة نحو الكسرة و بالألف نحو الياء ، او هي احدى الظواهر الخاصة بنطق الفتحة الطويلة نطقا يجعلها بين الفتحة الصريحة و الكسرة الصريحة)) [1] .

و مما قرئ ممالا في سورة عبس المباركة : ((أنَّى صَبَبنا)) . و هذه القراءة تأتي ((على معنى فلينظر الانسان كيف صببنا الماء ؟)) [1] ، او على معنى ((أين ، الا إنَّ فيها كناية عن الوجوه ، و تأويلها : من أي وجه صببنا الماء)) [1] .

و ما يمكن أن يضاف في هذا السياق أنَّ هذه القراءة ناظرة الى التلازم السياقي بين الاستفهام الانكاري و ما يدل على نظر الاعتبار و التفكر في الاستعمال القرآني ؛ ذلك بأنَّه استعمل ((انظر ـ انظروا ـ ينظروا ـ لينظر)) للدلالة على النظر الاعتباري و التفكري (٤٥ مرة) إقترن في (٤٠) منها بأدوات الاستفهام ، إذ ورد (٣٥ مرة) مع ((كيف)) ، و مرتين مع ((ماذا)) ، و مرة واحدة مع كل من ((أ ـ أنَّى ـ ما)) [1]

و الامالة في هذا السياق الصوتي من المشكل ؛ فقد جاءت من غير أن يكون الغرض من ورائها تحقيق المماثلة او الانسجام الصوتي ، بل جاءت مع وجود ما يمنع هذه الامالة ؛ ذلك بأنَّ الألف و الفتحة القصيرة لا تمالان إذا جاءتا قبل او بعد واحد من أصوات التفخيم ، و معلوم أنَّ الصاد صوت مفخم . و هذا لا يعني عدم وجود تفسير صوتي لهذه الامالة ، فقد تكون ممثلا للتنغيم الهابط الذي يصوت به مع عدم تمام المعنى للدلالة على الحث و التدبر ، او الدعوة الى الاذعان للقدرة الالهية و الخضوع لسلطان الحق .

و قد يرتبط التنغيم في هذا السياق بالاشارة الى أنَّ ما يأتي من الأهمية بمكان فكأنَّه يستقبل او يمهد الى شيء من التذلل و الخضوع . و ليست بعيدة دلالة التنغيم في سياق النعمة عن السرور و الارتياح ، فضلا عن الاشارة الى الشكر الذي توجبه هذه النعمة . و لا يفوتنا في معرض التحليل الصوتي الدلالي ما للتنغيم من دلالة على الانبهار و التعجب من القدرة الالهية بغية الايمان و التصديق .

الهوامش

---

[1] لا يعني أنَّ القراءات النحوية و الصرفية لا يجد فيها الباحث الدلالي حاجته ، فالعدول النحوي في القراءات يتبعه تحويل دلالي ، أي أنَّ التوجيه النحوي للقراءات القرآنية لابد من ان يلج باب الدلالة و يصبح توجيها دلاليا ، و كذلك قراءات المستوى الصرفي .

[1] ارتفاع الصوت هو المعنى اللغوي للنبر . ينظر . أقرب الموارد في فصيح العربية و الشوارد ، سعيد الشرتوني (نبر) ٥/ ٣٣٠ .

[1] ينظر . القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث ، د. عبد الصبور شاهين ٢٦ ، دراسة الصوت اللغوي ، د. احمد

مختار عمر ١٨٧- ١٨٨ ، لهجة تميم و أثرها في العربية الموحدة ، غالب المطلبي ٢١٢ .

[١] الأصوات اللغوية ، د. ابراهيم أنيس ٩٧ .

[١] ينظر . لهجة تميم و أثرها في العربية الموحدة ٢١٥ .

[١] ينظر . اللغة ، فندريس ٨٧ .

[١] مناهج البحث في اللغة ، د. تمام حسان ١٦٤ .

[١] من الباحثين من استبدل ((التلوين الموسيقي)) او ما هو قريب منه بالتنغيم . ينظر . التطور النحوي للغة العربية ، برجشتراسر ٧١ ، الأصوات اللغوية ١٧٦ ، علم اللغة العام (الأصوات) ، د. كمال محمد بشر ٢٤٥ .

[١] في البحث الصوتي عند العرب ، د. خليل ابراهيم العطية ٦٣ .

[١] ينظر . الدلالة الصوتية في القرآن الكريم ، كريم مزعل اللامي ١٧٩ .

[١] ينظر . التطور النحوي للغة العربية ٧١ ، في البحث الصوتي عند العرب ٦٤ .

[١] ينظر . دراسة الصوت اللغوي ١٨٨ ، ١٩٥ ، ٣٠٧ ، ٣١٥ .

[١] ينظر . القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث ٢١٠- ٢١٣ ، دراسة الصوت اللغوي ٣٠٧- ٣٠٨ ، لهجة تميم و أثرها في العربية الموحدة ٢١٥ .

[١] ينظر . التطور النحوي للغة العربية ٧٢ .

[١] ينظر . القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث ٢١٠- ٢١٣ ، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ، د. غانم قدوري الحمد ٥٦٦- ٥٦٩ .

[١] ينظر تفصيل الكلام عل أنواع النبر في : دراسة الصوت اللغوي ١٨٩- ١٩٠ .

[١] ينظر . لهجة تميم و أثرها في العربية الموحدة ٢١٨ .

[١] لا تخفى صلة هذا بتسمية التنغيم بالتلوين الموسيقي و اللحني . ينظرالبحث (هامش : ١٠)

[١] ينظر . الهامش : ٨ من البحث .و من الدارسين من علل عدم القدرة على تحديد موقع النبر في العربية بأنَّ عدَّه راجعا الى أسباب غير لغوية . ينظر . لهجة تميم و أثرها في العربية الموحدة ٢١٥ . و هذا التعليل مرفوض ؛ لأنَّه ما من شيء يعترض العملية اللغوية إلا و هو لغوي . ينظر .الأثر الدلالي لحذف الاسم في القرآن الكريم ، محمد جعفر ١٢- ١٣

[١] الخصائص ، ابن جني ٢/ ٣٧٢- ٣٧٣ .

[١] ينظر . في البحث الصوتي عند العرب ٦٧ .

[١] يوسف : ٦٦ .

[١] مدارك التنزيل و حقائق التأويل ، النسفي ٢/ ٧٨٠ .

[١] ينظر . الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ٥٦٨ .

[١] الذاريات : ٢٩ .

[١] في حالة غياب المسند التركيبي ، و عوض عنه من طريق أخرى ، يسمى المعوِّض مسندا نفسيا لذلك المسند الغائب عن الأداء الكلامي . ينظر . بنية اللغة الشعرية ، جان كوهين ١٦٠

[١] الأثر الدلالي لحذف الاسم في القرآن الكريم ١٦٤ .

[١] اعتمدت في توثيق هذه القراءات المصادر الآتية : مختصر في شواذ القرآن من كتاب البديع ، ابن خالويه ١٦٨- ١٦٩ ، الكشاف ، الزمخشري ٤/ ٢١٧- ٢١٩ ، زاد المسير في علم التفسير ، ابن الجوزي ٩/ ٢٧ ، الجامع لاحكام القرآن ، القرطبي ١٩/ ٢١٤- ٢١٥ ، البحر المحيط ، ابو حيان الأندلسي ٨/ ٤٢٧- ٤٣٠ ، أنوار التنزيل ، البيضاوي ٢/ ٥٦٨ ، الظواهر اللغوية في قراءة الحسن البصري ، د. صاحب أبو جناح ١٤٣ .

[١] جوَّز الفراء التسكين و نفى قراءة احدهم به . ينظر . معاني القرآن ٣/ ٢٣٩ .

[١] استقر في الدرس الصوتي الحديث أنَّ ((النبر و التنغيم)) من الفونيمات فوق التركيبية . ينظر . دراسة الصوت اللغوي ١٨٥- ١٨٧ ، ٣٠٧ ، ٣١٤ ، ٣١٥ .

[١] ينظر . الدراسات الصوتية عند علماء التجويد٥٦٦ .

[١] ينظر . القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث ٢٨ .

[١] استقر في البحث الصوتي أنَّ الكلمة إذا لم تشتمل على مقطع طويل وقع النبر على المقطع الأول منها . ينظر . القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث٢٧ .

[١] يدل (عَبَسَ) على المبالغة . ينظر . الكشاف ٤/ ٢١٧ ، أنوار التنزيل ٢/ ٥٦٨ .

[١] عبس : ٣- ٤ .

[١] ينظر لتفصيل ذلك في : لهجة تميم و أثرها في العربية الموحدة ٢١٨ .

[١] ينظر . القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث ٢٨ .

[١] نفسه و الصفحة .

[١] ينقله الدكتور عبد الصبور شاهين عن الأستاذ ما روزو . المصدر نفسه ٢٨ .

[١] ينظر . نفسه و الصفحة .

[١] ينظر . اعراب القرآن ، النحاس ١/ ١١٦ .

[١] ينظر . الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ٥٢٢- ٥٢٤ .

[١] ينظر تفصيل ذلك في : المصدر نفسه ٥٢٧- ٥٢٩ .

[١] ينظر . المصدر نفسه ٥٢٧- ٥٢٩ .

[١] الأصوات اللغوية ١٥٩- ١٦٠ .

[١] ينظر . الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ٥٣٠ .

[١] ينظر . أنوار التنزيل ٢/ ٥٦٨ .

[١] ينظر . المحتسب ، ابن جني ٢/ ٣٥٢ ، الجامع لاحكام القرآن ١٩/ ٢١٤ . و قد جاء فيه أنَّ هذه القراءة تجعل ((أن متعلقة بفعل محذوف دل عليه ((عبس و تولى)) التقدير : آأن جاءه اعرض عنه و تولى ؟)) .

[١] يعد المد من مظاهر التنغيم . ينظر . الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ٥٦٧ .

[١] معنى قراءة الهمز و المد ((آأن)) هو ((ألأن جاءه)) . البحر المحيط ٨/ ٤٢٧ .

[١] ينظر . اعراب القرآن (دراسة التحقيق) ١/ ١٢٣ .

[١] ينظر . الكتاب ، سيبويه ٤/ ١١٣ ، الدراسات اللهجية و الصوتية عند ابن جني ، د. حسام سعيد النعيمي ٢٢٢- ٢٢٤ .

[١] لهجة تميم و أثرها في العربية الموحدة ٢١٧- ٢١٨ .

[١] تنظر . الآيات : ٣٣- ٣٧ ، ٤٠ .

[١] ينظر . الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ٥٠٧- ٥٠٨ .

[١] اعراب القرآن ، النحاس ١/ ١١٨ .

[١] الكشاف ٤/ ٢١٨ .

[١] الجامع لاحكام القرآن ١٩/ ٢٢١ .

[١] ينظر هذا الاستعمال في : المعجم المفهرس للقرآن الكريم ، محمد فؤاد عبد الباقي (نظر) ٨٧٦- ٨٧٧ .

المصادر و المراجع

- القرآن الكريم .
- الأثر الدلالي لحذف الاسم في القرآن الكريم ، محمد جعفر ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة الكوفة ـ ١٩٩٧ .
- الأصوات اللغوية ، د. ابراهيم أنيس ، مكتبة الانجلو المصرية ، ط ٤ ، القاهرة ١٩٧١ .
- اعراب القرآن ، ابو جعفر النحاس ، تحقيق : د. زهير غازي زاهد ، عالم الكتب ، ط ٣ ، بيروت ـ ١٩٨٨ .
- اقرب الموارد في فصيح العربية و الشوارد ، سعيد الشرتوني ، دار الاسوة للطباعة و النشر ، ط ١ ، ايران ـ ١٤١٦ هـ .
- البحر المحيط ، ابو حيان الاندلسي ، مكتبة ومطابع النصر الحديثة ، الرياض .
- بنية اللغة الشعرية ، جان كوهين ، ترجمة ، محمد الولي ، محمد العمري ، ط١ ، المغرب ـ ١٩٨٦ .
- التطور النحوي للغة العربية ، برجشتراسر ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ـ ٢٠٠٣ .
- الجامع لاحكام القرآن ، ابو عبد الله محمد القرطبي ، تحقيق : احمد عبد العليم البردوني ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ـ ١٩٦٧ .
- الخصائص ، ابن جني ، تحقيق : محمد علي النجار ، دار الشؤون الثقافية العامة ، ط ٤ ، بغداد ـ ١٩٨٦ .
- الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ، د. غانم قدوري الحمد ، مطبعة الرشيد للنشر ، ط ١ ، بغداد ـ ١٩٨٠ .
- الدراسات اللهجية و الصوتية عند ابن جني ، د. حسام سعيد النعيمي ، دار الرشيد ، بغداد ـ ١٩٨٠ .
- دراسة الصوت اللغوي ، د. احمد مختار عمر ، عالم الكتب ، ط ١ ، القاهرة ـ ١٩٧٦
- الدلالة الصوتية في القرآن الكريم ، كريم مزعل اللامي ، رسالة ماجستير ، كلية التربية ، الجامعة المستنصرية ـ ١٩٩٧ .
- الظواهر اللغوية في قراءة الحسن البصري ، د. صاحب أبو جناح ، منشورات مركز دراسات الخليج العربي ، ط ١ ، مطابع جامعة الموصل ، الموصل ـ ١٩٨٥ .
- علم اللغة العام ـ الأصوات ، د. كمال محمد بشر ، دار المعارف ، ط ٢ ، مصر ـ ١٩٧١
- في البحث الصوتي عند العرب ، د. خليل إبراهيم العطية ، الموسوعة الصغيرة ، بغداد ـ ١٩٨٣ .
- القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث ، د. عبد الصبور شاهين ، دار القلم ، مصر ١٩٦٦
- الكتاب ، سيبويه ، تحقيق : عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، دار الرفاعي بالرياض ، ط ٢ ١٩٨٢ .
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، جار الله الزمخشري ، طهران .
- اللغة ، جوزيف فندريس ، ترجمة : عبد الجليل الدواخلي ، محمد القصاص ، مطبعة لجنة البيان العربي ، مكتبة الأنجلو المصرية

ـ ١٩٥٠ .

- لهجة تميم و أثرها في العربية الموحدة ، غالب فاضل المطلبي ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ١٩٧٨ .
- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات و الايضاح عنها ، ابو الفتح عثمان بن جني ، تحقيق : علي النجدي ناصف ، د. عبد الفتاح اسماعيل شلبي ، لجنة احياء التراث الاسلامي ، القاهرة ١٣٨٦ هـ .
- مختصر في شواذ القرآن من كتاب البديع ، ابن خالويه ، عني بنشره ج . برجشتراسر ، دار الهجرة .
- مدارك التنزيل و حقائق التأويل ، النسفي ، دار القلم ، ط ١ ، بيروت ـ ١٩٨٩ .
- معاني القرآن ، أبو زكريا الفراء ، تحقيق : محمد علي النجار ، عالم الكتب ، بيروت ١٩٨٠.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الحديث ، ط٢ ، القاهرة ـ ١٩٨٨ .
- مناهج البحث في اللغة ، د. تمام حسان ، دار الثقافة ، ط ٢ ، الدار البيضاء ـ ١٩٧٤